



(فِي تَعْرِيفِ الْبَيْنَةِ - مِدْلُ اسْتَأْنَدَ إِلَيْهِ) - خَلِيلُ اللهِ خَلِيلُ اللهِ

يندرج إسقاط طائرة إسرائيلية بصاروخ أرض - جو أطلق من الأراضي السورية في سياق مواجهات مستمرة منذ سنوات عدة لا يمكن إلا أن تنتهي بحرب واسعة في يوم ما، قد يكون قريباً. عنوان هذه المواجهة التي يتحمل أن تقود إلى حرب هو الوجود العسكري الإيراني في سوريا. هل يمكن لإيران أن تبقى في الجنوب السوري، عبر الحرس الثوري أو ميليشياتها المذهبية في المدى البعيد؟ هذا هو العنوان العريض للحرب المقبلة التي يعتبر إسقاط الطائرة الإسرائيلية فصلاً من فصولها الطويلة والمثيرة.

لا شك أن إسقاط الطائرة الإسرائيلية من نوع أ enf-16، يعتبر نقطة تحول. يعود ذلك إلى أنها المرة الأولى منذ سنوات طويلة التي تسقط فيها طائرة حربية عسكرية في مستوى طائرة enf-16. كانت المرة الأخيرة التي سقطت فيها أوأسقطت، طائرة إسرائيلية في العام 1986 فوق لبنان. كانت الطائرة من نوع فانتوم ولا يزال الطيار الذي كان فيها ويدعى رون أراد مفقودا إلى اليوم.

الجديد الآن هو الصاروخ الذي أسقط الطائرة التي كانت تغير على موقع إيرانية وأخرى تابعة للنظام في الداخل السوري. هذا يعني بكل بساطة أن المواجهة بين إيران وإسرائيل دخلت مرحلة جديدة وأن الجانب الروسي لم يعد قادرًا على التزام التفاهم القائم بين الرئيس فلاديمير بوتين ووزير الدفاع الإسرائيلي يئير لبيد في شأن الجنوب السوري الذي يفترض أن يكون خالياً من الوجود الإيراني المباشر.

كلام أوضح، لا تستطيع روسيا أو ربما لا ت يريد، لأسباب مستجدة، التزام التفاهمات مع إسرائيل مع ما تقتضيه من سماح لها بأن تضرب ساعة تشغيل الأهداف التي تشاء والتي تعتبر أنها تشكل خطراً عليها في الأراضي السورية. مثل هذا الصاروخ المتتطور الذي لاحق الطائرة الإسرائيليَّة روسى الصنع، وهو جزء من شبكة دفاعية في سوريا. هل يعني اطلاقه أن روسيا لم تعد قادرة على ضبط إيران؟

في الواقع، هناك أسئلة كثيرة لا أجوبة عنها بعد. لكن الثابت أن اللعبة تغيرت في سوريا وأن التفاهمات التي كان معمولاً بها في الماضي لم تعد موجودة، خصوصاً مع دخول تركيا على الخط وبدء عملية عفرين بالتفاهم مع الروس وذلك كي تحجز مقعداً لها في المرحلة المقبلة، مرحلة تقرر مصير سوريا وتقاسم مناطق نفوذ فيها.

الثابت أيضاً أنَّ الأميركيين قرروا بدورهم أن تكون معظم ثروات سوريا تحت سيطرتهم. لذلك اختاروا ضرب أي قوة تابعة للنظام أو لإيران لدى اقترباها من شرق الفرات. هذا ما حدث أخيراً عندما قتل الأميركيون نحو مئة مقاتل تقدموا من حقل للغاز في محافظة دير الزور.

أي صدام بينهما، خصوصاً في الجو. ولكن يبدو أن الروس وجدوا أنفسهم أخيراً في وضع لا يحسدون عليه، خصوصاً بعد الهجمات التي تعرضت لها قاعدة حميميم أواخر العام الماضي وبعدها اكتشفوا أن إيران التي استعانت بهم من أجل إنقاذ بشار الأسد في خريف العام 2015 تمتلك أجندة سورية خاصة بها تقوم على وضع اليد على جزء من أراضي البلد، خصوصاً في المناطق الجنوبية.

سيفرض الصاروخ الصاروخ الذي أسقط الطائرة الإسرائيلي على جميع المعنيين إعادة النظر في مواقفهم. لكن السؤال الذي سيفرض نفسه هو الآتي: هل يمكن القبول بالوجود الإيراني في سوريا؟

تعرف أميركا بوجود مصالح روسية في سوريا، خصوصاً في منطقة الساحل. وتعرف بوجود مصالح تركية وإن في حدود معينة. هناك مشكلة ذات طابع كردي بين أنقرة وواشنطن. سيكون هناك نقاش في شأن المصالح التركية في سوريا، خصوصاً في الشمال، بين وزير الخارجية الأميركي ريكاردو تيلرسون وكبار المسؤولين الأتراك بعد أيام قليلة عندما يزور تيلرسون أنقرة.

المعروف ما الذي تريده إسرائيل التي ضمت الجولان نهائياً. ليس سراً أن العلاقات بينها وبين روسيا من النوع العميق جداً. ما تريده إسرائيل هو الانتهاء من سوريا ككيان موحد من جهة ومنع إيران من استخدام الجنوب السوري لتهديدها بأسلحة وصواريخ معينة من جهة أخرى. الأكيد أن الموقف الإسرائيلي ليس بعيداً لا عن التفكير الأميركي ولا عن التفكير الروسي، ولا حتى عن التفكير التركي.

من هذا المنطلق، يبدو الاستثمار الإيراني في نظام بشار الأسد في غير محله. لن يكون هناك قبول إقليمي أو دولي بوجود إيران في سوريا، حتى لو كانت حجة طهران أن سوريا جسر إلى لبنان الذي باتت تعتبره محافظة من محافظاتها في ظل الهيمنة التي يمارسها حزب الله على البلد.

أوروبا نفسها، التي تميل إلى مسايرة إيران من زاوية المحافظة على الاتفاق في شأن ملفها النووي، لا يمكن أن تقبل دولها باستمرار الوجود الإيراني في جزء من الأراضي السورية وسعى الميليشيات التابعة لـ"الحرس الثوري" إلى التمدد في اتجاه إدلب والشمال السوري ومناطق أخرى.

يبقى موضوع في غاية الأهمية هو ما الذي سيفعله حزب الله في حال استمر التصعيد بين إسرائيل وإيران في سوريا. هل يفتح جبهة جنوب لبنان ويدخل البلد في مغامرة لن تؤدي سوى إلى مزيد من الخسائر والدمار تلحق بالوطن الصغير الذي يعيش في ظل استقرار هش؟

طوى الصاروخ الذي أسقط الطائرة الإسرائيلية مرحلة من مراحل الأزمة السورية المستمرة منذ آذار - مارس 2011، وهي في الواقع تتوج لأزمة نظام أفلوي هرب دائماً من مشاكله الداخلية إلى خارج، منذ انقلاب البعث في الثامن من آذار - مارس 1963. لكن ما لا يمكن تجاهله أن ما سبق إسقاط الطائرة الإسرائيلية إطلاق إيران طائرة من دون طيار من مطار سوريا في اتجاه إسرائيل مع ما يعنيه ذلك من رغبة في ممارسة لعبة التصعيد مع طرف يهوى هذه اللعبة.

ليس مستبعداً أن تكون إيران تزيد أيضاً حرباً في المنطقة لتفوق للعالم إن ثمن خروجها من سوريا سيكون غالياً، بل غالياً جداً وإن إسرائيل غير قادرة على دفع هذا الثمن، لا هي ولا غيرها، بما في ذلك روسيا. يظل في النهاية، هل في وارد إسرائيل خوض معارك برية في سوريا مع ما يعنيه ذلك من خسائر بشرية؟

هناك بكل بساطة رهان إيراني على أن إسرائيل عاجزة عن خوض مثل هذه المغامرة التي ستكتفى بمقتل المئات من جنودها وسترضخ، هي وغيرها، في نهاية المطاف لواقع يتمثل في أن إيران وجدت في سوريا لتبقى فيها وأن مليارات الدولارات التي صرفتها لحماية نظام بشار الأسد كانت أموالاً صرفت في المكان المناسب لغرض واضح يصب في حماية النظام في طهران قبل أي شيء آخر.

إنها مسألة أكبر بكثير من صاروخ روسي أطلقه الإيرانيون أو النظام السوري وأسقط طائرة إسرائيلية. هل تخرج إيران من سوريا أم لا، مع ما يعنيه ذلك من انعكاسات على الداخل الإيراني وطرح لمصير النظام؟